حفريات في تاريخ قلعة هوّارة من التأسيس إلى نهاية العصر الوسيط

أ. بن معمر محمد،
جامعة وهران1.

الملخص
في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري، قامت الحرب بين قبيلة هوّارة والإمام الرّستمي الثاني عبد الوهاب، وانتهت بهزيمة الهوّاريين واندحارهم خارج تيهرت، ولم يعطنا ابن الصغير صاحب الرّواية أيّ تفاصيل عن المكان الذي أسّسوا فيه مملكتهم الجديدة مكتفيا بالإشارة إلى جبل ينجان، ولولا نصّ اليعقوبي الذي أكمل معطيات ابن الصغير لما تمكّنا من تحديد مكان هذه المملكة التي زارها في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، وذكر اسم أميرها ابن مسالة والمدن التابعة له وهي يلل والقلعة، ممّا يوحي بأنّ القلعة قد تأسست قبل زيارة اليعقوبي لها. وقد ظلت حاضرة منذ ذلك التاريخ في المصادر الجغرافية والتاريخية، وعُرفت بأسماء مختلفة مثل مدينة الجبل، وعين الصفاصف، وتاسقدالت، وقلعة هوّارة، وأخيرا قلعة بني راشد، وهي اليوم إحدى بلديات جنوب غرب ولاية غليزان على الحدود مع ولاية معسكر، وتحمل اسم القلعة.

الكلمات المفتاحية: قلعة هوّارة، قلعة بني راشد، العصر الوسيط، جبال بني شقران، وادي يلل.

Résumé
Ibn Assagir auquel nous devons tant de détails curieux sur les origines de l'Etat des Huwwara ne nous donne aucun renseignement précis sur l'emplacement de cet état. C'est le géographe al-Ya'qubi qui complète utilement les données d'Ibn Assagir. Il s'agit ici de la description de l'Etat huwwaride contenue dans son traité Kitab al-Buldan qui est un précieux témoignage sur l'état de ce pays pendant le dernier quart du 3eme siècle de l'Hégire. Selon la description, au royaume d'Ibn Masala appartenaient deux villes. L'identification d'une de ces villes, à savoir Ilil, c'est l'Hilil actuel. La deuxième des villes appartenant à l'état d'Ibn Masala El-Huwwari était al-Gabal. D'après al Ya'qubi cette dernière localité qui était la résidence d'Ibn Masala, était éloignée d'une distance d'une demi-journée de marche de la ville d'Hilil. Ce lieu qui n'est aujourd'hui qu'un petit village suspendu au flanc des escarpements abrupts du Djebel Barbar, est situé à 19 kilomètres au sud d'Hilil, ce qui correspond parfaitement à distance indiquée par al-Ya'qubi. Al-Bakri appelle cette localité

Qala'a Huwwara. Cette résidence faisait partie d'un pays montagneux nommé Gabal Huwwara par Ibn Khaldoun.

مقدّمة

إنّ الدارس للمصنّفات الجغرافية والتاريخية التي تناولت بلاد المغرب الأوسط خلال القرون الهجرية الأولى، يقف على مجموعة كبيرة من أسماء المدن والقرى والحصون والقلاع التي تردّدت أصداؤها في تلك الكتابات، ولكن الكثير منها لا نكاد نعرف عنه إلاّ الاسم ونجهل مواقعها ومعالمها وتاريخها، فالذي يدرس كتاب البلدان لليعقوبي، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل، وكتاب المسالك والممالك للبكري، وكتاب نزهة المشتاق للإدريسي، فالذي يدرس هذه المصنّفات يجد مجموعة من المدن والقرى التاريخية في المغرب الأوسط لا نكاد نعرف مكانها بالضبط، كما لا نكاد نعلم من تاريخها شيئا، والقائمة بأسماء تلك المدن طويلة. فالمؤرخ الجغرافي الذي يروم رسم خريطة تاريخية وجغرافية للمغرب الأوسط لهذه العصور لاشك أنه يقف أمام عقبات ومشكلات لا سبيل لحلها والتغلب عليها إلا بإجراء عدة أبحاث وحفريات في طول البلاد وعرضها.

إنّ البحث في تاريخ المدن يشكّل مساهمة أساسية في تاريخ المغرب الأوسط، وهو ما أدركه أسلافنا بحدسهم حين خصّصوا، رغم قلّتهم، لبعض المدن مثل بجاية وتلمسان ووهران تآليف طغى عليها رصد التراجم الخاصة بالعلماء والأدباء والمتصوفة ورجال السياسة على حساب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وفي عنوان الدراية للغبريني عن بجاية، والبستان لابن مريم عن تلمسان، والثغر الجماني للراشدي عن وهران ما يعزّز هذا الاتجاه. صحيح أن بوادي المغرب الأوسط وأريافه كانت كبيرة وشاسعة الأطراف، ولكن تاريخها كان دوما منجذبا إلى الحواضر والمدن.

لقد اخترت في هذا البحث مثالا من مدن الغرب الجزائري للحفر في تاريخها، ألا وهي مدينة قلعة هوّارة المعروفة اليوم اختصارا بالقلعة، ولم تكن هذه المدينة عاصمة من عواصم المغرب الأوسط الكبرى مثل تيهرت والقلعة وبجاية وتلمسان، ولم ترق إلى مستوى هذه الحواضر، ولكنها، بالرغم من ذلك، ظلت حاضرة في كل عصور التاريخ الجزائري الوسيط والحديث وحتى المعاصر بنشاطها الاقتصادي ودورها العسكري وإسهامها الحضاري، وهي اليوم إحدى بلديات جنوب غرب ولاية غليزان الواقعة على الحدود مع ولاية معسكر.

حيثيات النشأة والتأسيس:

عُرفت المدينة في تاريخها الطويل بعدّة أسماء سوف نعرض لها تباعا حسب تاريخ وظروف ظهورها، ولعلّ أوّل اسم عُرفت به هو "الجبل"، وقد وردت الإشارة إلى هذا الاسم عند اليعقوبي في كتابه البلدان، وهو أقدم نصّ وصلنا عن اسم المدينة، واليعقوبي من الرّحّالة الذين زاروا بلاد المغرب خلال القرن الثالث الهجري، وكتبوا حول مسالكها وممالكها عن معاينة لا عن مطالعة، ويعتبر بحق هذا النص القصير، الذي أشار فيه اليعقوبي إلى الاسم المذكور، المفتاح الحقيقي لأصل المدينة.

يقول اليعقوبي: "ومن مدينة تاهرت وما يحوز عمل ابن أفلح الرّستمي إلى مملكة رجل من هوّارة يقال له ابن مسالة الإباضي، إلاّ أنّه مخالف لابن أفلح يحاربه، ومدينته التي يسكنها يقال لها الجبل منها إلى مدينة يقال لها يلّل تقرب من البحر المالح (البحر المتوسط) مسيرة نصف يوم، ولها (أي المملكة) مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار" (اليعقوبي، أ. 1988: 111).

يُستفاد من الإشارة الواردة في النص أنّ اليعقوبي لمّا زار المدينة، قبل سنة 276هـ تاريخ تأليف كتاب البلدان، وجدها مسكونة آهلة وهو ما يعني أنّها تأسست قبل هذا التاريخ بفترة، وأنّها كانت مركزا أو عاصمة للمملكة الهوّارية، المستقلة عن تيهرت الرستمية، بزعامة ابن مسالة الهوّاري، وأنّها كانت قريبة من مدينة يلّل (يلل الحالية) التابعة لنفوذ هذه المملكة. ولولا ورود اسم مدينة يلّل في النصّ لاستعصى علينا تحديد مكان القلعة، فمن المعلوم أنّ هذه المدينة تقع شمال القلعة وتبعد عنها بحوالي 19 كلم، وأمّا مصطلح الجبل الذي نعت به اليعقوبي المدينة فسنعود إليه لاحقا.

إنّ العبارات المتسارعة الواردة في النص رغم أهمّيتها إلاّ أنها تحتاج مزيدا من التوضيح لفهم ظروف تأسيس المدينة، خصوصا ما تعلّق بالمملكة الهوّارية التي انتسبت إليها المدينة.

يرتبط تاريخ ظهور هذه المملكة بالأحداث التي عرفتها العاصمة الرستمية تيهرت على عهد الإمام الثاني عبد الوهاب الرستمي (168- 208هـ)، فقد انفرط في عهده عقد الإباضية الذي كان يجمع القوى السياسية والقبلية ومختلف العناصر الفاعلة، ويمثل الرابطة الوحيدة التي وحّدت هذه العصبيات، وبرزت الحزازات في شكل حركات وثورات على الإمام المذكور وعلى خلفائه من بعده واتخذت في أغلبها طابع الانشقاق المذهبي، وكانت أولى هذه الثورات وأخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التي

عُرفت بالنكار (الدرجيني، أ. 1974: ج1: 47). وقد شجّعت حركة النكّار رغم فشلها على قيام ثورات أخرى، وأضحت الإمامة مرمى لسهام الطاعنين والظاعنين.

ومن تلك الثورات حركة التمرّد التي واجهت عبد الوهاب، وقامت بها بعض بطون قبيلة هوّارة الضاربة جنوبي تاهرت، وكانت هذه القبيلة من المكونات الأساسية للمجتمع الرستمي إلى جانب نفوسة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية، فضلا عن عناصر مختلفة من الفرس والعرب. وحدث هذا التمرد كردّ فعل للتنافس القائم بين الإمام عبد الوهاب وبين زعيم الأوس، وهي بطن من بطون هوارة، حول الزواج من إحدى بنات شيخ قبيلة لواتة النازلة جنوبي تيهرت على وادي مينا. فحين أزمع زعيم الأوس مصاهرة شيخ لواتة، حال دون ذلك الإمام عبد الوهاب وخطب المرأة اللواتية لنفسه، منعا للتقارب الهوّاري اللواتي الذي رأى فيه خطرا على إمامته.

وتعبيرا منه على غضبه تجاه ما أقدم عليه عبد الوهاب ارتحل زعيم الأوس بمجموعة من هوّارة عن مضاربهم ونزلوا بمكان يبعد عن تيهرت بعشرة أميال عُرف بوادي هوارة، الرافد الأيسر لوادي مينا، ومن هناك طفقوا يشنّون الغارات على أتباع عبد الوهاب وأنصاره، فأعدّ جيشا كبيرا باغت به خصومه المتمردين، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين قُتل فيها خلق كثير، وانتهت بهزيمة الثوار من هوارة وفرار فلولهم إلى جبل ينجان. ذلك هو ملخص ثورة هوارة التي انفرد ابن الصغير بذكر تفاصيلها (ابن الصغير، م. 1986: 52).

للأسف لا يقدم لنا ابن الصغير تاريخاً محدداً لانفصال هوّارة، ولا وقت وقوع المعركة، ويبدو مع ذلك أن هذا الحدث لم يقع إلا في نهاية حكم الإمام عبد الوهاب أوّل القرن الثالث الهجري، أي وقت بلوغ ابنه أفلح سن الرشد، لأنّه كان من أبطال هذه المعركة البارزين، فلفت نظر والده ونال إعجابه فعقد له الإمامة الرستمية بهذه المناسبة.

كما سكت ابن الصغير عن أخبار هوّارة المنهزمة إلى جبل ينجان، ولم يعد إلى ذكرها إلاّ بمناسبة الصراع الذي عرفته تيهرت بين أطراف النزاع والقوى المتنافسة عقب موت الإمام الرستمي الثالث أفلح بن عبد الوهاب سنة 258ه، ووجد محمد بن مسالة شيخ هوارة، الوارد في نص اليعقوبي السالف الذكر، الفرصة مواتية للسيطرة على تيهرت، فاقتحمها دون عناء وصار أميرها وأدار شؤونها سبع سنوات. وفي سنة 268ه دخلها الإمام الرستمي

الخامس أبو اليقظان بن أفلح بناء على ميثاق بينه وبين ابن مسالة بوساطة من نفوسة بعد حروب طويلة بين الطرفين (ابن الصغير، م. 1986: 84). ولم يذكر ابن الصغير أيّ شيء عن ظروف انسحاب هوارة من تيهرت بزعامة أميرها ابن مسالة، وبالتأكيد أنّهم عادوا إلى مملكتهم ومركزها مدينة الجبل موضوع بحثنا.

أشار ابن الصغير، اعتمادا على مصادره الشفوية، إلى جبل ينجان الذي اندحرت إليه هوّارة بعد هزيمتها على يد عبد الوهاب الرستمي، دون أن يحدّد طبيعة هذا المكان ولا المسافة التي تفصله عن تيهرت، فجاء نص اليعقوبي ليملأ الفراغ الذي تركته رواية ابن الصغير حين حدّد موقع المملكة الهوّارية، رغم أنّه لم يذكر اسم الجبل ولكنه ذكر المدينة باسم الجبل. ويبدو أنّ التسمية الواردة عند ابن الصغير غير مضبوطة ويجب أن تُصحّح، فقد وردت في صورة الأرض (ابن حوقل، ن. د ت: 89)، وفي أحسن التقاسيم (المقدسي، م. د ت: 56)، بصيغة جبل توجان وهي الأصح، أمّا تسمية جبل فرحان الواردة في نزهة المشتاق (الإدريسي، م. 1994: ج1: 251) فهي بالتأكيد تحريف لكلمة توجان.

إنّ جبل توجان الذي لجأت إليه هوارة بعد هزيمتها أوّل القرن الثالث الهجري، هو ما يطابق جبال بني شقران الحالية الواقعة بين سهلي سيق والهبرة شمالا وسهل غريس جنوبا. وليس جبال الونشريس كما ذهب إلى ذلك المستشرق ليفيسكي تاديوس (Lewicki, T. 1968: 10)، ففي القسم الشرقي من هذه الجبال وتحديدا في المنحدرات الشمالية الغربية لجبل بربر، بنت هوارة مدينة القلعة في تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد ولكنه من دون شك يقع في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، لذلك عُرفت في أوّل عهدها وإلى تاريخ رحلة اليعقوبي إليها باسم مدينة الجبل. ومن الواضح أنّ اختيار مكان بناء مدينة القلعة كان ينمّ عن خبرة ودراية بالموقع الذي استجاب للشروط الخلدونية في تأسيس المدن.

للأسف لا نعرف أيّ نشاط للهوّاريين في مدينتهم الجديدة القلعة خلال القرن الثالث الهجري، ولا عن علاقتهم بالقبائل المجاورة مثل جيرانهم الغربيين من بني محمد بن سليمان العلويين، ومن المعلوم أنّ اليعقوبي قد خصّص حيزا هاما في كتابه البلدان للسليمانيين وتكلّم عنهم أكثر من غيرهم، فكل ما نعرفه عن الهوّاريين تلك الإشارة الواردة عند اليعقوبي من أنّ ابن مسالة

كان مخالفا لابن أفلح، وما ذكره ابن الصغير عن دور ابن مسالة في الصراع الذي عرفته تيهرت وسيطرته عليها مدة سبع سنوات.

المدينة من نهاية القرن الثالث إلى أواخر السادس الهجريين

وفي نهاية القرن الثالث الهجري ظهرت الدولة الفاطمية فقضت على الدول القائمة آنذاك ومنها الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، فطفق الحلف الزناتي بقيادة محمد بن خزر المغراوي، يحارب الفاطميين ويصدّ دعوتهم القائمة على التشيّع الإسماعيلي باسم المروانيين في الأندلس. وكان انتقام الفاطميين عنيفا تجاه كل القبائل الرّافضة لمشروعهم السياسي والمذهبي، خصوصا قبائل الجهات الغربية لبلاد المغرب التي نالت من اضطهاد الفاطميين الشيء الكثير، فاضطرت تحت ضرباتهم المتكررة إلى الهروب، أو الإجفال بتعبير ابن خلدون، من المغرب الأوسط إلى الصحراء وإلى المغرب الأقصى.

يقول ابن خلدون: "وسرّح عبيد الله المهدي ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة 315ه وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه فأجفلوا إلى الصحراء، واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسجلماسة" (ابن خلدون، ع. 1992: مج7: 31). وفي ذات السياق أورد ابن حيان القرطبي في المقتبس رسالة مؤرخة في سنة 323ه كتبها موسى ابن أبي العافية، أمير مكناسة في شمال المغرب الأقصى، إلى حليفه الخليفة الأموي الناصر يطلعه على أحوال بلاد المغرب حين لجأت إليه (ابن أبي العافية) قبائل المغرب الأوسط خوفا من الفاطميين، وممّا جاء فيها: "وصارت الطريق سالكة إلينا من عندهم بالهاربين من فتيانهم وأولوا البأس منهم كمكاسة بن ناصر المكناسي أمير الغرب، ومن قدم بعده من رجال مكناسة، ولواتة، وهوارة، وزناتة، وأهل جبل بوجان بني عم داود بن مصالة، وزواغة أهل الشلف..." (ابن حيان، ق. 1979: ج5: 369).

يُفهم من رسالة ابن أبي العافية أنّ هوّارة كانت من القبائل التي طالها العنف الفاطمي، ولا غرابة في ذلك طالما أنّها كانت من أركان الحلف الزناتي عدوّ الفاطميين الأوّل، ومن البديهي أن تلقى المملكة الهوّارية على يد الفاطميين المصير نفسه الذي لقيه الرستميون، وليس لدينا ما يثبت تعرّض مدينة القلعة، في خضمّ هذه الأحداث التي عرفها النصف الأول من القرن الرابع الهجري، إلى التخريب من طرف الفاطميين أو استغلالها لمصالحهم العسكرية على غرار ما فعلوه بتيهرت حين اتخذوها قاعدة عسكرية

لبسط نفوذهم على الجهات الغربية، وبمدينة أفكان القاعدة الزناتية القريبة من القلعة، حين أقدموا على تخريبها سنة 347هـ.

وفي عهد الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي 361- 373هـ مؤسس الدولة الزيرية وخليفة الفاطميين الأول على بلاد المغرب، استمرّ الصراع باسم الفاطميين مع الحلف الزناتي وملاحقة قبائله، وبدت آثاره ونتائجه الكارثية على البلاد والعباد واضحة، وهو ما أجمله ابن حوقل قائلا: "وقد تغيرت تاهرت عمّا كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا، (عهد الأمير بلكين بن زيري)، فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت" (ابن حوقل، ن. د ت: 93)، وتأتي شهادة ابن حوقل على درجة كبيرة من الأهمّية لأنّها شهادة معاينة أدلى بها بعد زيارته الميدانية لبلاد المغرب.

وعن وصفه للمدينة يقول: "ومن مدينة أفكان إلى المعسكر، قرية عظيمة لها أنهار وأشجار وفواكه، مرحلة، ومن المعسكر إلى جبل توجان إلى عين الصفاصف، قرية كبيرة لها عين وأنهار وأشجار ومنها سقي يلل، مرحلة، ومنها إلى يلل، مدينة ذات أنهار وفواكه، مرحلة" (ابن حوقل، ن. د ت: 89). يندرج النص في سياق كلام ابن حوقل عن الطريق الذي سلكه من فاس إلى المسيلة، وقد أتى به مقلوبا، كما قال، لأنّه سلكه من الغرب إلى الشرق، أي من المغرب الأقصى إلى إفريقية مرورا بالمغرب الأوسط.

إنّ وصف ابن حوقل لعين الصفاصف وتحديد موقعها في جبل توجان يطابق مدينة القلعة التي تراجعت إلى قرية كبيرة حين زارها ابن حوقل، ولكنها بقيت حاضرة بصفتها محطّة رئيسية في الطريق القوافلي الذي سلكه ابن حوقل، ولعلّ الأحداث التي عرفتها هذه الجهات على عهد الفاطميين، وما تلا ذلك من فتن وقتل وفقر، وأسباب أخرى لا نعرفها كلّها، كان كفيلا بإحداث هذا التراجع. أمّا التسمية التي أطلقها ابن حوقل على المدينة وهي عين الصفاصف فذلك ممّا انفرد به، ولعلّه نسبها إلى العين التي كانت تنبع في أعلى المدينة، كما فعل اليعقوبي قبله حين نسب المدينة إلى الجبل فسمّاها الجبل، وهذا يعني أنّ المدينة حتى أواخر القرن الرابع الهجري لم تكن قد اتخذت اسمها الذي سوف تُعرف به لاحقا.

وفي أواسط القرن الخامس الهجري يخبرنا البكري عن مدينة القلعة، وهو يتحدث عن الطريق من تيهرت إلى البحر المتوسط، فيقول: "وبغربي مدينة مستغانم، على نحو ثلاثة أميال منها، مدينة تامزغران وهي مدينة مسوّرة

لها مسجد وجامع، وعلى مقربة منها قلعة هوّارة، ويسمّونها تاسقدالت، وهي قلعة في جبل، لها ثمار ومزارع، وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات، وهو النهر الذي يُسقى به فحص سيرات، وطول الفحص نحو أربعين ميلا، ليس منه شيء إلاّ يناله ماء هذا النهر، إلاّ أنّه اليوم غامر غير عامر ولا أهل فيه لأنّ الخوف أجلى أهله" (البكري، ع. 2002: مج2: 252).

يتجلّى من النص ظهور اسم قلعة هوّارة لأوّل مرّة، وأنّ المدينة كانت تحمل اسم تاسقدالت أيضا، ويبدو من كلام البكري أنّ المدينة رغم تعريفها باسمين إلاّ أنّ التسمية الغالبة في عصره، أي أواسط القرن الخامس الهجري، كانت هي قلعة هوّارة، وهو الاسم الذي اشتهرت به حتى القرن الثامن الهجري، تاريخ تحوّلها إلى قلعة بني راشد، وقد غطّى هذا الاسم على جميع الأسماء السابقة مثل الجبل، وعين الصفاصف، وأخيرا تاسقدالت، بل أصبح يحلّ محلّ اسم قلعة بني راشد نفسه حتى بعد القرن الثامن الهجري.

ربط البكري المدينة بسهل سيرات الواقع شمالا في أسفلها، ويتعلّق الأمر بسهل الهبرة حاليا، كما أشار إلى أنّ السهل صار خاليا من أهله الذين أجلاهم الخوف، دون إعطائنا تفسيرا لذلك. أمّا النهر الذي سُمّي باسمه السهل، فهو وادي الحمّام حاليا الذي يتوسّط وادي مينا شرقا ووادي سيق غربا، وهو يتشكل في الأصل من ثلاثة أودية تتجمّع قرب عين أفكان جنوب غرب مدينة معسكر قبل أن تتحوّل إلى الوادي المذكور الذي يمرّ عبر مدينة بوحنيفية ثم المحمدية ويلتقي في المصبّ عند المقطع، بين مستغانم وأرزيو، مع وادي سيق، ويبدو أنّ منسوب الوادي كان غزيرا آنذاك نظرا للمساحة الشاسعة التي كان يسقيها.

يوحي كلام البكري بأنّ المدينة تقع على وادي سيرات (وادي الحمّام) الذي يجري تحتها، وهذا غير صحيح ولكنّه يجري قريبا منها في الجهة الشمالية الغربية قادما من عين أفكان ومارا بالمحمدية كما ذكرنا. ولكن الوادي الذي يجري أسفل المدينة هو وادي يلّل حاليا، فهذا الوادي يتكون من رافدين:

- الرافد الأيمن وهو الوادي الذي ينبع من جبل الناضور الواقع خلف جبل بربر فيأخذ الأسماء التالية: وادي عبادي، وادي بن عرّاج، وادي الدبّة، وادي القلعة نسبة إلى المدينة، وبعد مسافة قليلة يلتقي مع الرافد الأيسر عند المكان المسمّى الرابطة.

- الرّافد الأيسر وهو الوادي الذي ينبع من ضواحي مدينة البرج شرق معسكر فيأخذ اسم وادي بومنجل وعند وصوله إلى عين مسراتة، على بعد حوالي 2500 متر جنوب غرب مدينة القلعة، يأخذ اسم وادي مسراتة ليلتقي مع الرافد الأيمن عند الرابطة.

ومن هذا المكان المسمّى الرابطة الذي أشار إليه تروسال (Troussel, M. 1927: 38)، الواقع على بعد أقل من ثلاثة كيلومترات شمال القلعة، يأخذ الوادي اسم وادي يلّل ويمرّ بجانب قرية السمّار وبلدية سيدي سعادة ثم يخترق مدينة يلّل ويصب في وادي مينا.

وخلال الفترة التي كتب فيها البكري عن القلعة، ونعني بها القرن الخامس الهجري، كانت المنطقة التي تقع فيها المدينة خاضعة لنفوذ بني يلومي وبني عمومتهم بني ومانو. فحسب ابن خلدون الذي أرّخ لهؤلاء فإنّهم من توابع الطبقة الأولى من زناتة، وكانوا من أوفر بطونها وأشدّها شوكة، وكانت مواطنهم جميعا بالمغرب الأوسط حيث سكن بنو ومانو الجهة الشرقية لوادي مينا في منداس ومرات (وادي رهيو حاليا) وما إليها من أسافل الشلف. وسكن بنو يلّومي في الجهة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيق وسيرات وجبل هوّارة. واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيّين فكانت بينهم حروب بسبب اختلاف المصالح والولاءات للدّول المتعاقبة مثل الحمّاديين والمرابطين والموحدين، إلى أن استعلى عليهم بنو عبد الواد وبنو توجين بولايتهم للموحدين ومخالطتهم إيّاهم، فذهب شأن الحيّين وافترقت خيامهم على عهد الدّولة الموحدية، فورثت هوّارة مواطنهم في الجبل (ابن خلدون، ع. 1992: مج7: 65). ولم يتعرّض ابن خلدون للقلعة وهو يؤرّخ لهذه الجهات رغم إشارته إلى جبل هوّارة، لأنّها بالنسبة له لم تكن قد تأسّست بعد كما سنرى لاحقا.

أمّا خلال منتصف القرن السادس الهجري، فإنّنا نصادف معلومات قليلة ومكرّرة عن المدينة وردت عند الجغرافي الإدريسي، وهو يصف الطريق من تلمسان إلى تنس، حين قال: "ومن مدينة أفكان إلى المعسكر مرحلة، والمعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار، ومنها إلى جبل فرحان مارا مع أسفله إلى قرية عين الصفاصف وبها فواكه كثيرة وزروع ونعم دارة، مرحلة، ومنها إلى مدينة يلل مرحلة" (الإدريسي، م. 1994: ج1: 251).

يتفق صاحب النص مع سابقيه في وصف المدينة، ولكن أهم ما يلفت الانتباه في النص هو ظهور اسم عين الصفاصف من جديد، رغم اشتهار

المدينة باسم قلعة هوّارة قبل هذا التاريخ بقرن من الزمن، وهذا ما يدلّ على أنّ الإدريسي لم يزر مدينة القلعة، ولم ينقل عن البكري، ولكنه نقل عمّا أثبته ابن حوقل بخصوص هذا الطريق، وهو ما تكشفه لنا المقارنة بين النّصين. وتلك معضلة كبيرة تظل تواجه الاعتماد على كتب الجغرافيا والرحلات، ونقصد بها غياب الإطار الزماني الصحيح، فمن غير اللجوء إلى المقارنة تبقى معلومات هذا الصنف من الكتابة محلّ شك، فقد يوحي وصف الإدريسي للمدينة والطريق السالك منها وإليها بأنّه يخص القرن السادس الهجري، والحقيقة أنّه يعود إلى القرن الرابع الهجري.

وفي أواخر القرن السادس الهجري وهو يصف مدن بلاد المغرب الإسلامي يطالعنا صاحب كتاب الاستبصار عن المدينة قائلا: "وقرب مدينة تاهرت قلعة هوّارة وهي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب، وتحتها فحص طوله نحو أربعين ميلا يشقّه نهر سيرات ويسقي أكثر أرضه، يسمّى ذلك الفحص سيرات باسم النّهر" (مجهول. 1958: 178). لا يحمل النّص أي جديد عن المدينة فهو يؤكّد ما قاله سابقوه عن حصانتها وخصوبة جبلها وإشرافها على سهل سيرات، ولكنه يزيل اللّبس الذي أثاره الإدريسي حول تسميتها، وهذا ما يؤكّد أن صاحب الاستبصار إمّا أن يكون قد زار المدينة أو أنّه نقل عن البكري.

المدينة: من قلعة هوّارة إلى قلعة بني راشد وحتى نهاية العصر الوسيط

خلال هذه المرحلة يمدّنا ابن خلدون ببعض المعلومات عن المدينة وذلك أثناء حديثه عن قبائل هوّارة وانتشارها في بلاد المغرب الإسلامي، ولا بأس من إيراد النص كاملا: "ومن أشهرهم (قبائل هوّارة) بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء، وهو مشهور باسم هوّارة، وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم، ويُعرف رؤساؤهم ببني إسحق. وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلّومي، فلما انقرضوا صار إليه هوّارَة وأوطنوه، وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز منهم. ثم ظهر من بني عمّهم رجل اسمه إسحق، واستعمله ملوك القلعة، وصارت رئاستهم في عقبه بني إسحق، واختطّ كبيرهم محمد بن إسحق القلعة المنسوبة إليهم. وورث رئاسته فيهم أخوه حيّون وصارت في عقبه. واتصلوا بالسلطان أيام ملك بني عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتظموا في شعائرهم، واستعمل أبو تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيّون قائداً على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم، لفرض المغارم عليهم فقام بها أحسن قيام ودوّخ بلادهم وأذلّ من عزّهم. وبعد

أن غلب بنو مرين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن، عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء، ثم استعمل بعده عمّه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن بن يوسف. ثم تلاشى حال هذا القبيل، وخفّ ساكن الجبل بما اضطهدتهم دولة بني عبد الواد، وأجحفت بهم في الظلامات، وانقرض بيت بني إسحق" (ابن خلدون، ع. 1992: مج6: 170).

جاءت عبارات النص متسارعة ومختصرة حيث أوجزت فترة طويلة من تاريخ هذا الفرع الهوّاري الذي سكن جبال بني شقران واشتهرت باسمه. لقد سكت ابن خلدون عن ذكر تاريخ تأسيس مدينة القلعة ومع ذلك يُستنتج من سياق كلامه أنّ ذلك كان في أواخر القرن السادس أو بداية السابع الهجريين تاريخ انتقال الجبل من أيدي بني يلّومي إلى هوّارة، وقد نقل عنه أوجين قرول ذلك (Graulle, E. 1913: 260)، وهذا يتعارض مع ما قدّمناه سالفا حين أثبتنا بالأدلة تأسيس المدينة قبل التاريخ المذكور.

وإذا صحّ كلام ابن خلدون فإنّنا أمام احتمالين: الأوّل أن القلعة كانت موجودة في مكانها المعروف إلى يومنا هذا، وأنّ محمد بن إسحاق كبير هوّارة قام بتوسيعها وتجديدها فحسب، وليس اختطاطها وإنشائها من الأساس كما يُفهم من كلام ابن خلدون. والثاني أنّ المدينة المشار إليها في المصادر السابقة، كانت موجودة قبل هذا التاريخ عند عين مسراتة (قرية مسراتة حاليا)، حيث يتحول الرافد الأيسر لوادي يلّل إلى اسم وادي مسراتة على بعد حوالي 2 كلم جنوب غرب مدينة القلعة الحالية كما أسلفنا، ولمّا بُنيت المدينة الجديدة رحل إليها أهل مسراتة وتحولت مدينتهم إلى مجرّد قرية صغيرة.

أقول هذا الاحتمال الثاني لأنّ الزيارة الميدانية لعين المكان تكشف عن التشابه الكبير بين موقع كل من مدينة القلعة الحالية وقرية عين مسراتة، فهما متقاربتان وتقع الأولى على ضفة الرافد الأيمن لوادي يلّل، والثانية على ضفة الرافد الأيسر للوادي نفسه، ولكل واحدة منهما عين ماء تكفي للشرب والسّقي وخاصة عين مسراتة التي تشرب منها القلعة اليوم.

كما يُفهم من كلام ابن خلدون أنّ اشتهار الجبل ومعه المدينة باسم هوّارة إنّما يعود إلى هذا التاريخ، ولكن نصوص الجغرافيين السالفة الذكر مثل اليعقوبي والبكري وصاحب الاستبصار تثبت عكس ذلك، وتذكر صراحة نسبة المدينة إلى هوّارة قبل هذا التاريخ. ولا يستقيم كلام ابن

خلدون إلاّ إذا اعتبرنا أنّ هوّارة، التي استوطنت الجبل منذ أوّل القرن الثالث الهجري، قد اضطرّت، أمام الاضطهاد الفاطمي، ومزاحمة قبائل بني يلّومي الزناتية لها، وظروف أخرى لا نعلمها، إلى ترك الجبل ثمّ عادت إليه في أوّل القرن السابع الهجري حين سنحت لها الظروف بذلك. وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض العناصر الهوّارية لم تنقطع عن مضاربها في الجبل ونواحيه، دليلنا في ذلك شهادة البكري حين وصف مدينة يلّل القريبة من القلعة، فذكر أنّ ساكنتها من هوّارة (البكري، ع. 2002: مج2: 327).

يُستفاد من إشارات ابن خلدون المقتضبة أنّ القلعة صارت منذ القرن السابع الهجري مركزا لملوك هوّارة من بني إسحاق، وقد شارك هؤلاء الملوك في الحياة السياسية والأحداث الدّائرة في عصرهم، ومن ذلك اتصالهم بسلاطين الدولة الزيانية الأوائل وانخراطهم في خدمتهم، فاستعمل السلطاني الزيّاني أبو تاشفين الأوّل، (718- 737ه)، الأمير الهوّاري يعقوب بن يوسف قائدا على بني توجين أعداء بني عبد الواد، لفرض المغارم عليهم، فقام بالمهمة المنوطة به أحسن قيام، وأمعن في إذلالهم خدمة للسلطان.

وخلال فترة الاحتلال المريني للمغرب الأوسط على يد السلطان أبي الحسن، (737- 749ه)، سار هذا السلطان على نهج بني عبد الواد في استعمال ملوك القلعة لخدمته. وفي عبارته الأخيرة الواردة في النص السابق يوجز ابن خلدون نهاية ملوك القلعة من هوّارة وتلاشي حالهم على يد بني عبد الواد من غير تفصيل يُذكر، ولكن الغالب على الظنّ أنّ ذلك كان على عهد السلطان أبي حمّو موسى الثاني الذي حكم الدولة الزيانية منذ سنة 760ه، تاريخ انتهاء الاحتلال المريني الذي تواصل أيّام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، واستمرّ حكم أبي حمّو حتى سنة 791ه.

وبعد انقراض حكم بني إسحاق، خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وتلاشي حال هوّارة من الجبل الذي اشتهر باسمها، آل مصير هذا الجبل ومعه مدينة القلعة إلى أسرة بربرية أخرى، يتعلّق الأمر ببني راشد الزناتيين، نسبة إلى جدّهم راشد وهو أخو بادين جدّ بني مرين وبني عبد الواد. وكانت مواطنهم في الصحراء بالجبل المعروف براشد جدّهم، وهو جبال العمور حاليا.

ولمّا قامت دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط، وكان بنو راشد هؤلاء أحلافا لهم، زحفوا نحو التلول في الشمال وطفقوا يشنّون الغارات على

بسائط بني ورنيد جنوب تلمسان حتى ألجأوهم إلى الجبل المطل على تلمسان، وعلى بسائط قبيلة مديونة التي لجأت إلى جبال تسالة جنوب وهران، ثم انتهوا في رحلتهم بالزّحف على السهول الجنوبية لجبل هوّارة (السهول الواقعة بين معسكر شمالا وسعيدة جنوبا) حيث كان استقرارهم وصار الجبل حصنا لهم (ابن خلدون، ع. 1992: مج7: 180).

ويضيف ابن خلدون أنّ بني راشد حين استقرّوا في مواطنهم الجديدة صاروا أحلافا لبني عبد الواد في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين، وكانت رئاستهم في بيت من بيوتهم يُعرفون ببني عمران، وكان القائم بها في أول أمرهم إبراهيم بن عمران، ثمّ استبدّ عليه أخوه ونزمار، وبعد موته خلفه ابنه مقاتل فقتل عمّه إبراهيم، وتفرّقت من يومئذ رئاسة بني عمران بين بني إبراهيم وبني ونزمار، إلاّ أنّ رئاسة بني إبراهيم كانت أظهر. وتعاقب على رئاسة البيتين مجموعة من الأمراء ذكر ابن خلدون أسماءهم، ودورهم في الحياة السياسية، ومنهم أبو يحي بن موسى من بني إبراهيم الذي اتهمه السلطان أبو حمّو موسى الثاني بمداخلة بني مرين فقبض عليه وسجنه ثم قتله سنة 768ه، إلى أن انقرضت رئاستهم جميعا وذهب عزّهم في أواخر القرن الثامن الهجري، وصاروا خولا (خدما) وجباية للدولة الزيانية (ابن خلدون، ع. 1992: مج7: 181).

ومن اللافت للانتباه أنّ ابن خلدون الذي يسوق هذه الأخبار، يسكت عن أيّ صدام مع هوّارة التي كانت تسكن الجبل حين زحف إليه بنو راشد في القرن السابع الهجري، كما فعلوا مع مديونة وبني ورنيد، ولكنه ربط زحفهم باضمحلال سيادة بني يلّومي هناك وانقراض دولتهم، وتجاهل أيّ ذكر لهوّارة، علما أنّه هو من أخبرنا في نصّه السابق عن تاريخ مملكة هوّارة في هذا الجبل وعن أسماء بعض ملوكها من بني إسحاق وبنائهم القلعة ثم انقراضهم. كما يُفهم من سياق أخباره أنّ ملوك هوّارة في مدينة القلعة كانوا معاصرين لأمراء بني راشد جيرانهم في السهول، ولكنه لم يذكر ذلك صراحة، ولم يشر إلى أيّ احتكاك سلما كان أم حربا بين الطرفين، ممّا يوحي ببعض التناقض في أخباره. ولا يستقيم كلامه إلاّ إذا سلّمنا بأنّ هوّارة ظلت مستقرّة بقلعتها في الجبل، دون أن تتعرّض لغارات بني راشد المستقرين بجوارها في السهول الجنوبية، حتى أواخر القرن الثامن الهجري حيث عرفت المنطقة تطورات جديدة حين غلب العرب بني راشد على هذه السهول.

يُجمل ابن خلدون الحدث في عبارة مختصرة على النحو التالي: "فلما ملك بنو راشد هذا الجبل، استوطنوه وصار حصنا لهم، ومجالاتهم في ساحته القبلية (الجنوبية)، إلى أن غلبهم العرب (عرب سويد) عليها، وألجأوهم إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد" (ابن خلدون، ع. 1992: مج7: 181). هكذا تعرّض بنو راشد، على أيدي عرب سويد من زغبة، للمصير نفسه الذي تعرّضت له، على أيديهم من قبل، قبائل مديونة وبني ورنيد. لقد تركوا السهول للعرب ولجأوا إلى جبل هوّارة وتحصّنوا به، وصار معروفا بهم منذ نهاية القرن الثامن الهجري. فحلّت بذلك تسمية قلعة بني راشد محلّ تسمية قلعة هوّارة، على أنّ اسم هوّارة لم يختف نهائيا أمام الاسم الجديد، بل ظل يتردّد في القرون اللاحقة، وظلّت المدينة تُعرف بالاسمين معا، فتُتعت تارة باسم قلعة بني راشد، وباسم قلعة هوّارة تارة أخرى.

لم يكن بنو راشد وحدهم من تعرّض لزحف القبائل العربية ولكن الأمر يتعلّق بحركة عامة، ذلك أن هذه القبائل التي كانت تسكن المناطق الجنوبية للمغرب الأوسط أخذت توجّه أنظارها نحو أراضي التل الخصبة في الشمال لإنماء ماشيتها بعد أن ذاقت حياة الشظف، فلمّا رأت الفرصة قد سنحت لها للاستيلاء على تلك الأراضي طفقت جموعها تتدفق عليها كالسّيل، متحدّية كل الحواجز، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون، أثناء حديثه عن عرب زغبة من بني هلال، قائلا: "ثم لما نصب بنو حصين (من عرب زغبة) أبا زيان (منافس أبي حمّو) ابن عمّ السلطان أبي حمو للملك ورشحوه للمنازعة سنة 767ه، هبّت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة، ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط، ما عجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سدّه، ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعا وكرها، رعيا لخدمته وترغيبا فيها، وعدة وتمكينا لقوته، حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها، ولجأوا إلى سيف البحر" (ابن خلدون، ع. 1992: مج6: 58).

ولم تكن القبائل العربية كلّها حلفا واحدا بل كان الصراع بينها قائما لأسباب مختلفة، مثل صراع بني عامر مع خصومهم الألداء سويد في الجهات الشرقية من دولة بني عبد الواد، وقد استغلّ سلاطين الدولة هذا الصراع لصالحهم، واتخذوا في بعض الأحيان مدينة القلعة، بحكم موقعها الهام في تلك الجهات، قاعدة لإدارة ذلك الصراع. ففي أواخر سنة 777ه أمر

السلطان الزياني أبو حمّو موسى الثاني ابنه أبا تاشفين المستقر آنذاك في مدينة القلعة بمناصرة سويد ضد بني عامر، فانطلق الجيش من القلعة بقيادة أبي تاشفين إلى معسكر بني عامر قرب أعالي وادي مينا، وجرت معركة طاحنة بين الطرفين انتهت بهزيمة بني عامر وقتل كثير من أبطالهم، ثم عاد أبو تاشفين منتصرا إلى القلعة حيث استراح أياما، رحل بعدها إلى تلمسان بإذن من والده (ابن خلدون، ي. 2007: ج2: 583).

ولم تفقد مدينة القلعة أهميتها بل سجّلت حضورها حتّى في فترات ضعف دولة بني عبد الواد، ففي سنة 866هـ ثار أبو عبد الله محمد المتوكل على أمير تلمسان أحمد العاقل، ولمّا نهض إليه من مليانة قاصدا تلمسان، اتجه إلى أرض بني راشد وعاصمتها القلعة ففتحها لأنّها كانت محطة أساسية في طريقه، وفتح مستغانم ووهران ثمّ دخل تلمسان (التنسي، م. 1985: 254). ولمّا بلغ خبر هذه الحوادث السلطان أبا عمرو عثمان الحفصي، نهض بجيشه في السنة الموالية قاصدا تلمسان، وفي طريقه نزل هو الآخر أرض بني راشد، وهناك وافته الوفود من عرب سويد وبني عامر، كما قدم إليه وفد من تلمسان يضمن له بيعة السلطان المتوكل الزياني، فأجاب طلبه وقفل عائدا إلى بلاده (الزركشي، إ. 1966: 152).

وفي أواخر العصر الوسيط وبداية الحديث يطالعنا الحسن الوزان بخبر مقتضب عن المدينة وهو يصف إقليم بني راشد، فقال إنّ هذا الإقليم يمتد على نحو خمسين ميلا من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا، جهته الواقعة جنوبا كلّها سهول (سهل غريس)، والواقعة شمالا كلّها تقريبا مرتفعات (جبال بني شقران)، لكن أراضيهما معا صالحة للزراعة. وأهل المرتفعات يسكنون دورا لائقة جدا مبنية بجدران، ويزرعون الحقول والكروم، ولهم قرى عديدة، أهمّها اثنتان: الأولى تُدعى قلعة هوّارة وتشتمل على نحو أربعين دارا للصنّاع والتجار، وهي مبنية على شكل قلعة في منحدر جبل بين الشعاب. وتُسمّى الثانية المعسكر (معسكر حاليا) وبها يقيم خليفة الملك مع فرسانه. وأهل السهول يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيل، وهم أثرياء جدّا يؤدّون بعض الإتاوات إلى ملك تلمسان (الوزان، ح. 1983: ج2: 26).

قام الحسن الوزان، الذي عُرف بدقة ملاحظاته وأهمية توثيقه، بزيارته للإقليم خلال الفترة بين سنتي 915هـ تاريخ احتلال الإسبان لمدينة وهران،

و923ه تاريخ دخول مدينة القلعة تحت نفوذ القائد عرّوج التركي. وقد أفادنا الوزان بالتحديد الجغرافي لهذا الإقليم الذي ترددت أصداؤه، في مصادر ما بعد القرن الثامن الهجري، باسم وطن أو أرض بني راشد، رغم أن سهوله الجنوبية استولى عليها عرب سويد. كما ربط الوزان الجبل ومدينة القلعة بهذه السهول الجنوبية، على عكس المصادر الجغرافية الوسيطية السابقة التي جعلت من سهل سيرات الشمالي مجالا زراعيا ارتكزت عليه المدينة. وفي إشارته إلى أهمّية مدينة معسكر ما يوحي بأنّها كانت في طريقها إلى أخذ مكانتها في الإقليم على حساب القلعة، وقد دلّت الأحداث اللاحقة على صدق ملاحظة الوزان حول أهمية المدينتين، فقد تحولتا على التوالي، بعد مدينة مازونة، إلى مقر البايلك زمن الأتراك. وبدخول الأتراك العثمانيين إلى المدينة يبدأ تاريخها الحديث وهو خارج عن موضوع بحثنا.

عمران المدينة ونسيجها الاجتماعي

باستثناء الإشارة الأخيرة الواردة عند الوزان إلى عدد دور الصنّاع والتجار في مدينة القلعة، فإن جميع المصادر الوسيطية التي تناولت أخبار المدينة قد لاذت بالصمت تجاه عمرانها واكتفت بالوصف العام للمدينة التي اكتسبت حصانتها من الطبيعة وليس من يد الإنسان. ولم نستطع الاطلاع على عمران المدينة إلاّ من خلال مخطوط متأخّر كتبه الشيخ أبو عمر القلعي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. صحيح أنّ واقع المدينة خلال هذه الفترة كان أقرب إلى تراكمات وأحداث العصر الحديث، ولكن بإمكانه الكشف عن الوجه التقريبي للمدينة في عصورها الوسطى.

يقول الشيخ القلعي إنّ القلعة في أيّامه كانت تتكون من أربعة أحياء (فرق حسب استعماله)، بها تسعة مساجد. فرقة رأس القلعة وهي التي بُنيت أولا. وفرقة السوخ. وفرقة الكركوري وهي التي بها ديار المصارتية (نسبة إلى مصراتة أو مسراتة إحدى فروع قبيلة هوارة)، أهل الإمارة في العصر الأول، وكانت قصورهم خاوية على عروشها كما قال. والفرقة الرابعة تُعرف بدار الشيخ، وفيها كان يُعقد السوق الأسبوعي، ويعود تاريخ هذا السوق، حسب القلعي، إلى القرن السادس الهجري، تاريخ تأسيس القلعة، وقد تعمّد الإسحاقي مؤسّس القلعة اختيار يوم السبت حتى يحرم اليهود من سكنى المدينة ومن ارتياد السوق لأنّه يوم عطلتهم، وسنعود لموضوع اليهود لاحقا. وبجوار القلعة ثلاث قرى كانت تابعة لها يضيف القلعي، أكبرها قرية

الدّبة، وبها خمسة مساجد، وتليها قرية تليوانت، وبها ثلاثة مساجد، ثمّ قرية مسراتة التي برأس وادي مسراتة، وبها مسجد واحد (القلعي، ع. مخطوط: 7).

هناك معلومات حول المدينة دوّنها صاحب المخطوط من خلال مشاهداته وواقع عصره، وهي تهم تاريخ القرن التاسع عشر، خاصة ما تعلّق بأواخر العهد العثماني، والاحتلال الفرنسي، ومقاومة الأمير عبد القادر، ولكن ثمّة معلومات هامة تتعلق بتاريخ وعمران المدينة خلال العصر الوسيط، لم يذكر مصادرها، وإن صحّت هذه المعلومات فهذا يعني أنّ المدينة قد بُنيت وتوسعت على مراحل، كما دلّت على ذلك الأحياء الأربعة، التي أوردها القلعي حسب تواريخ بنائها.

ولا زالت أحياء المدينة والقرى المجاورة لها تحتفظ إلى اليوم بأسمائها المذكورة الواردة عند القلعي، فأوّل ما يصادف الداخل إلى المدينة من الناحية الشمالية حي دار الشيخ وبه ضريح الشيخ إبراهيم التازي، ومكان السوق الأسبوعي المنعقد يوم السبت إلى يومنا هذا، وبعده يأتي حي رأس القلعة وهو نواة المدينة وفيه المسجد الذي بناه الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1734م، ثم حي السّوخ وفيه عين ماء وهي أهم عيون القلعة، وفي أسفل هذه الأحياء على ضفة الوادي الحي الرابع وهو حي الكركوري. من الواضح أنّ أسماء هذه الأحياء حديثة ولا تعود للعصر الوسيط، ولكن تقسيم المدينة بهذا الشكل قد تكون أصوله وسيطية.

أمّا آثار المدينة التي تعود إلى عصرها الوسيط فمن الصعب الوقوف عليها أمام التحولات العمرانية والأحداث التي عرفتها القلعة في تاريخها الحديث والمعاصر، وهنا تجدر الإشارة إلى الزلزال الذي ضرب المدينة يوم 29 نوفمبر 1887م، وأدّى إلى خسائر كبيرة في الأرواح بلغت أكثر من ثلاثين قتيلا، ودمّر أكثر من خمسين منزلا، كما انهار مسجد الباي بوشلاغم، وكان حي رأس القلعة الأكثر تضررا (Troussel, M. 1927: 36)، وهذا يدل على أنّ الكثير من الملامح القديمة للمدينة قد تغيرت، بسبب هذه الكارثة الطبيعية.

كما تدل إشارة القلعي إلى آثار قصور المصارتية القديمة في حي الكركوري، التي صارت خاوية على عروشها كما قال، على عراقة العمران في المدينة، وهذا ما تعزّزه شهادة الوزان، السالفة الذكر، حين قال إنّ أهل المدينة يسكنون دورا لائقة جدا مبنية بجدران، وإنّ الصنّاع والتجار

وحدهم كانت لهم أربعون دارا، في الوقت الذي كان سكان السهول المجاورة يعيشون تحت الخيام.

من المعروف أنّ البحث في الأصول الاجتماعية، اعتمادا على معايير العرق والنسب والقرابة، يعتبر من المسالك المتشابكة والمعقدة، لاسيما إذا تعلّق الأمر بتتبّع حلقات التطور التاريخي لكيان محدّد في سياق متصل عبر قرون. إنّ استقراء نصوص المصادر القليلة المتاحة، من أجل إعادة تركيب العناصر الاجتماعية لمدينة القلعة في العصر الوسيط، أمكن الوقوف على مكانة هوّارة باعتبارها أقوى وأقدم عنصر اجتماعي وقبلي بالمدينة. وقد خصّص ابن خلدون حيّزا هاما في كتابه العبر لهذه القبيلة البربرية البرنسية، وفروعها وأماكن انتشارها في بلاد المغرب الإسلامي، وبعض أدوارها التاريخية منذ الفتح الإسلامي.

فاليعقوبي على سبيل المثال يصرّح نصّا في سياق حديثه عن مملكة هوّارة أنّها صاحبة المدينة والجبل. وفي نصّه البالغ الأهمّية، يفصح ابن خلدون عن أهمّ البطون المتفرعة عن هوّارة في المدينة فيقول: "ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء، وهو مشهور باسم هوّارة، وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم" (ابن خلدون، ع. 1992: مج6: 170). وممّا يدل على عراقة هذا البطن الهوّاري في المدينة أنّ واحدة من القرى الثلاث المحيطة بها لا زالت تحمل هذا الاسم وهي مسراتة وفيها عين ماء تحمل الاسم نفسه.

وفي القرن 16م شاركت مجموعة من أبناء قبيلة مسراتة بطرابلس الليبية، وهي من قبائل هوّارة كما هو معلوم، مع خير الدين بربروس في حربه ضد الإسبان لتحرير تونس، ثم دخلوا معه مدينة الجزائر فأثبتهم في الدّيوان، ومن هناك انتقل بعضهم إلى مدينة القلعة، واندمجوا مع بني جلدتهم المسراتيين سكانها الأصليين الذين نسب إليهم ابن خلدون تأسيس المدينة. ولذلك وقع تضارب في المصادر المتأخرة لمّا تناولت بايات بايلك الغرب وتحديدا الباي بوشلاغم الذي توفي سنة 1734م، فالشيخ القلعي يرى أنّ أصل أسلافه من مسراتة طرابلس، ولكن صاحب طلوع سعد السعود (المزاري، ب. 1990: ج1: 276)، وصاحب دليل الحيران (الزياني، م. 1978: 194)، يرجحّان أصله المسراتي القلعي الذي يعود إلى محمد بن إسحاق الذي ينسب إليه ابن خلدون تأسيس مدينة القلعة، أي أنّه من مسراتة هوّارة الجبل لا من مسراتة هوّارة طرابلس.

ويشكل بنو راشد الزناتيون العنصر الاجتماعي الثاني الذي سكن المدينة منذ نهاية القرن الثامن الهجري حين غلبهم عرب سويد على السهول وألجأوهم إلى سكنى الجبل والمدينة، وليس أدلّ على ثقل العنصرين المذكورين في تكوين النسيج الاجتماعي للمدينة، من نسبة المدينة إليهما واشتهار ذكرها في المصادر باسم قلعة هوّارة وقلعة بني راشد. كما اندمجت في المدينة عناصر سكنية أخرى مع هوّارة وبني راشد، ومنها فليتة وبنو غدّو وسجرارة، وقد رحل هؤلاء إلى المدينة بعد خراب مدينة البطحاء حسب شهادة القلعي. كما سكنتها بعض عناصر مغراوة الزناتية، وإليها يُنسب الشيخ محمد بن عمر الهوّاري، إذا صحّ ذلك، فهو هوّاري مغراوي، ولا يرتفع التناقض الظاهر في هاتين النسبتين إلاّ بحمل الأولى على الوطنية نسبة إلى المدينة، والثانية على الأصلية نسبة إلى القبيلة.

أمّا عن رواية القلعي القائلة إنّ مؤسّس القلعة منع اليهود من سكنى المدينة واختار يوم السبت لعقد سوقها حتى يحرمهم من دخولها، وإنّه لا دار لليهود بالقلعة مذ بُنيت إلى أيّامه في القرن التاسع عشر، فإنّ هذه الرّواية لم تصمد أمام نصّ نوازلي بالغ الأهمّية، ورد في معيار الونشريسي، يثبت دخول اليهود إلى المدينة خلال القرن التاسع الهجري. وردت النازلة تحت عنوان: "ظهور ساحر يهودي بقلعة هوّارة من نظر تلمسان عام 849هـ"، وهي عبارة عن سؤال وجّهه أهل القلعة إلى مفتي تلمسان أبي الفضل قاسم العقباني، وهو:"ورد علينا يهودي فاشتغل بأعمال أمثاله اليهود (يقصد التجارة والصنائع والحرف)، ثم اشتهر أمره أنّه شاعر وساحر ومُهين للمسلمين، وأظهر الكبرياء وصار يمشي بين المسلمين مشية المتجبّرين والمتكبّرين. فانتهى أمره إلى أن سبّ المسلمين بأن لا أصل لهم ولا حسب ولا نسب، وأنّ اليهود الهارونيين رؤساء شرفاء، ومن سبّهم من المسلمين يُخلع لسانه من قفاه، وأنّه هو شريف يفعل بمن سبّه من المسلمين ذلك، فلما ثبت ذلك عليه بعدول مرضيين أخذه الحاكم وكبّله حتى يعلم ما ترون فيه من قتله، أو صلبه، أو ضربه وسجنه..." (الونشريسي، أ. 1981: ج2: 399).

واضح من النّص أن اليهود كانوا يسكنون في مناطق قريبة من المدينة فيترددون عليها، بل ويقيمون فيها أحيانا مثل الساحر المذكور، فيتعاطون التجارة ويشتغلون الحرف والصنائع المعهودة لديهم. ومن المعروف أنّ يهود الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، قد تعايشوا، في ظل مناخ التسامح الدّيني، مع غيرهم من المكونات المجتمعية في الحواضر والمدن التي

سكنوها، ولكن النازلة أبانت عن سلوك عدواني، وتحدّي سافر، واستفزاز لشعور المسلمين، أقدم عليه هذا اليهودي. ولا نعرف الدّافع الحقيقي وراء هذا التصرّف، وهل أقام هذا اليهودي بمفرده في المدينة، أم أنّ الأمر يتعلّق بأقلّية يهودية، وهل كان يمثل يهود المنطقة ثقلا اجتماعيا إلى درجة إهانة سكانها من المسلمين والتكبّر عليهم؟

كما تجدر الإشارة إلى وجود آثار مقبرة يهودية قديمة في المكان المسمّى البياضة بحي دار الشيخ بجوار ضريح الشيخ إبراهيم التازي، ولا يوجد فيها أيّ قبر للمسلمين، ومن الواضح أنّ المقبرة قديمة جدّا وتعود إلى ما قبل تأسيس القلعة. ولأهمّية هذه المقبرة لدى اليهود يقول تروسال إنّ يهود مستغانم ومعسكر والمحمدية وغليزان كانوا يحجون إليها حتى أوائل القرن 20م لإحياء عيد الفصح، ولكن هذا التقليد لم يعد موجودا في أيامه أي في حدود سنة 1927م (Troussel, M. 1927: 104).

تلك هي الحفريات التي أمكن إنجازها في تاريخ قلعة هوّارة منذ تأسيسها في القرن الثالث الهجري إلى نهاية العصر الوسيط وبداية الحديث حيث يبدأ فصل آخر من فصولها، حاولنا من خلالها ترميم الكثير من الثغرات حسب ما توفره الأصول المتاحة، وبالتأكيد لا زالت هناك بعض الأسئلة في حاجة إلى إجابة، لأنّ الفترة الوسيطية في تاريخ المدينة طويلة ويلف بعض جوانبها الغموض، آمل أن تكشف عنها النصوص الجديدة والتنقيبات الأثرية التي لا أعلم مدى تقدّمها في هذا الميدان.

المراجع

الإدريسي، أبو عبد الله محمد. (1994). نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

البكري، أبو عبيد عبد الله. (2002). المسالك والممالك. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي. (دون تاريخ). كتاب صورة الأرض. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

ابن حيان، القرطبي، المقتبس. (1979). مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (1992). كتاب العبر. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن خلدون، يحي. (2007). بغية الروّاد. الجزائر: دار الأمل للدراسات.

ابن الصغير، المالكي. (1986). أخبار الأئمة الرستميين. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

التنسي، محمد بن عبد الله. (1985). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدّر والعقيان. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الدرجيني، أبو العباس أحمد. (1974). طبقات المشايخ بالمغرب. قسنطينة: مطبعة البعث.

الزركشي، أبو عبد الله ابراهيم. (1966). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس: المكتبة العتيقة.

الزياني، محمد بن يوسف. (1978). دليل الحيران وأنيس السهران. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

القلعي، أبو عمر بن عثمان، مخطوط قلعة بني راشد. مخبر المخطوطات.

مجهول. (1958). الاستبصار في عجائب الأمصار. الإسكندرية: مطبعة جامعة الإسكندرية.

المقدسي، أبو عبد الله محمد. (دون تاريخ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: مكتبة خياط.

المراكشي، عبد الواحد. (1963). المعجب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي.

المزاري، بن عودة. (1990). طلوع سعد السعود. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الوزان، الحسن بن محمد. (1983). وصف إفريقيا. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الونشريسي، أحمد بن يحي. (1981). المعيار المعرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

اليعقوبي، أحمد بن واضح. (1988). كتاب البلدان. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

Graulle, E. (1913). « Notice Historique sur Qala'a des Beni Rached ». Revue du monde musulman, T. (22), pp. (260-276).

Troussel, M. (1927). « Kalâa (des Beni-Rached) ». Bulletin de la Société de Géographie et D'archéologie d'Oran (BSGAO), T (47), p. (29-57 et 101-131).

Lewicki, Tadeusz. (1968). « Un royaume ibadite peu connu: l'état des Banū-Masāla ». Rocznik Orientalistyczny. T '(31-2), pp. (7-15).